معركة التقاليد

الأخ محمد قطب

هذا كتاب صادق أصيل .. كاتب له عقيدة وله قضية .. كاتب يحمل بيده القلم كما يحمل المجاهد في سبيل الله السيف ..

وما أقلّ الكتّاب الصادقين الأصلاء ، الذين يصدرون عن العقيدة ، ويكتبون بمداد القلب ، ويجعلون الكتابة جهاداً واستشهادا ..

إنّ أكثر حملة الأقلام في بلادنا ، ممّن يجمعون المعارف ، ويحسنون رصف الكلمات ، يعوزهم الأصالة والـــصدق والعقيدة والقضية ..

إنّهم صغار في نفوسهم ، عبيد لشهواتهم ومنافعهم ، أسرى هذه الحياة الدنيا ، يشتروها بكرامتهم وقناعتـــهم ، وكل غال من القيم والخلال ..

وقراء هذه الكلمة يجدون في ذاكرتهم وأمام أعينهم أمثلة لكتّاب تبدلت آراؤهم ومواقفهم بتبدّل العهود والظروف والحكام .. من كان رأسمالياً منهم غدا اشتراكياً ، ومن كان اشتراكياً أصبح رأسمالياً ، وقل مثل ذلك فـــيمن كـــان ملكياً وارتد جمهورياً ، أو كان جمهورياً فارتد ملكياً ، وفيمن يهجو اليوم من مدحه بالأمس ، ويمدح من ســـبق أن هجاه ، وفيمن يسخّر علمه أو يسخّر دينه لكل من يخافه أو يرجوه أو يدفع له الثمن .. وفيمن اتخذ الجمهور ربّاً من دون الله يكتب له ما يرضيه لا ما يرضي الله .. وفيمن جعل صنعة القلم تجارة وطريقاً إلى الكسب حلالاً أو حراما .. إلى آخر هذه السلسلة الطويلة التي لا أحتاج إلى المرور بسائر حلقاتها ، فهي تحت أعين القراء ممّا جعل الكلمـــة أداة تضليل بدل أن تكون أداة هداية ، وقوة للباطل بدل أن تكون قوة للحق ، في مرحلة حاسمة نحن أحوج ما نكون فيها إلى الكلمة الصادقة الواعية الهادفة ، التي تكشف الحقائق ، وتهدي السبيل وتنصر الحق على الباطل ..

هذه الكلمة المرجوة ليست كلمة رخيصة ولا سهلة ، ولا يستطيعها في مختلف الظروف إلاّ الرجال الذين آثـــروا الآخرة على الدنيا والحق على الحياة .. فهي قد تعرض صاحبها لبطش الحكام ، وأذى الطغام ، وحرب تلك القـــوى العالمية الرهيبة الظاهرة والمستترة ، التي تكيد للإسلام والمسلمين من الداخل والخارج ، وتضرب كل من يوقظهم من السبات ، ويرفع عن أعينهم الحجب ، ويومئ لهم إلى الطريق القاصد ..

وهي قد تسلب أصحابها الرزق والأمن ، وتقودهم إلى السجون والموت .. ولذلك كانت هذه الكلمة في بعـــض الصور والأحيان –كما ورد في الحديث الشريف– أفضل الأعمال : « أفضل الأعمال عند الله كلمة حق عند سلطان جائر » .

فإذا وقعنا على كاتب صادق أصيل له عقيدة وله قضية فقد وقعنا على كنـــز عظيم يزيد ثروتنا من الحق ، ويجلو أبصارنا وبصائرنا ، ويجعلنا أكثر سداداً وقدرة .

ومحمد قطب كاتب صادق أصيل ، يصدر –كما قلت– عن عقيدة ، ويحمل رسالة للناس .

وإن صدقه لينبض في كل كلمة من كلماته ، وتحسّه في كل سطر من سطوره ، وتطالعك أدلته باهرة عندما تقرأ كتبه . شخصية واحدة له هويتها الواضحة ، تتكامل ولا تتناقض من كتاب إلى كتاب ، ومن سنة إلى سنة ، وتقول الكلمة الجريئة المضيئة تدفع ثمنها الغالي ، وقد كان بإمكانها أن تقول الكلمة الكاذبة الخادعة ترتفع بها في دنيا المناصب ، وتنال بها ما يتهافت عليه الناس من المكاسب ..

ولقد كان يقول كلمة الحق وهو يعلم ما تجره كلمة الحق .

يقول في كتابه الذي سأتحدث إليكم عنه (معركة التقاليد) :

(إننا نواجه أعداء لن يكفوا لحظة عن عدائنا ومحاولة القضاء علينا)

(ونحن في حاجة إلى كفاح دائم لمواجهة هؤلاء الأعداء .

وليس الكفاح بالتمني ، وبالحماسة الجوفاء في داخل النفوس .

الكفاح عرق ودماء ودموع .. الكفاح تضحيات دائمة بالنفس والمال والجهود) .

ولقد كان يخوض معركته في سبيل الفكرة التي آمن بها ، ويحتمل ما يحتمل ، ويبذل ما يبذل ، وهو لا يفكر بثمرة يقتطفها من وراء المعركة ، أو انتصار يشهده .. وإنما هو جهاد خالص لله عزَّ وجلَّ ، وموقف مع الحـــق لا يطلـــب جزاءه في هذه الدنيا .

يقول في كتابه معركة التقاليد :

(لا يخامرني شك قط في أن المستقبل هو مستقبل الفكرة الإسلاميّة .

ليس من الضروري أن أشهد بنفسي تحقق الفكرة في المستقبل القريب .

ولكن عمر الأمم لا يقاس بعمر الأفراد ولا يقاس بالمدى القريب) .

أما إيمانه بقضيته ، وثقته بانتصار الحق الذي يؤمن به ويدعو إليه ، وبأن المستقبل هو مستقبل الإسلام ، فممـــا لا يخامره أي شك ولا يقف عند حد .

يقول في الكتاب السالف الذكر :

(أنا أحس –ولا يخامرني شك– أنّ الإسلام ليس دين هذه البقعة وحدها ولكنه سيكون غداً نظام البشرية ..

نظام البشرية ولو لم تعتنق دين الإسلام .

لقد انحرفت أوروبا عن العقيدة ووصلت في ذلك إلى نهاية القرار .

ولقد جربت الحضارة المادية الكافرة الملحدة المبتعدة عن الله .

جربتها أول مرة مع الرأسمالية .

وكفرت بالرأسمالية .. لم تجد فيها النظام المنشود .

وجربتها بعد ذلك مع الشيوعية .

وسوف تكفر بالشيوعية في الغد القريب أو الغد البعيد .

سوف تجد أن الشيوعية لا تعطيها الأمل المنشود) .

(ستظل البشرية تحسّ أن شيئاً –ما– في كيانها لم يشبع بعد لم تشبعه الشيوعية ، و لم تشبعه الحضارة المادية الكافرة الملحدة المبتعدة عن الله .

عندئذ سترتد إلى العقيدة .

سترتد إلى نظام يشمل واقع المادة وواقع الروح . نظام يشرع للأرض وهو متجه إلى السماء . نظام يوحد بـــين شقي هذا الكائن الآدمي : قبضة الطين ونفخة الروح .

وهذا النظام هو الإسلام .

لا يوجد شيء غيره في الأرض يشتمل على هذه الحقيقة) .

(وأولى بالمسلمين ، وهم يملكون هذا الزاد الضخم ، أن يكونوا أول من يفيء إلى هذه العقيدة وينتفع بما فيها من طاقات .

أولى بهم أن يعودوا إلى مركزهم التاريخي الأول ، لا في ذيل القافلة ولكن في مقدم الزمام . وفي اســـتطاعتهم أن يكونوا كذلك حين يؤمنون بالله ويتخلقون بأخلاق هذا الدين) .